الباب الخامس

أشهر طرق ومسالك الحج في الماضي وبدايات العصر الحديث

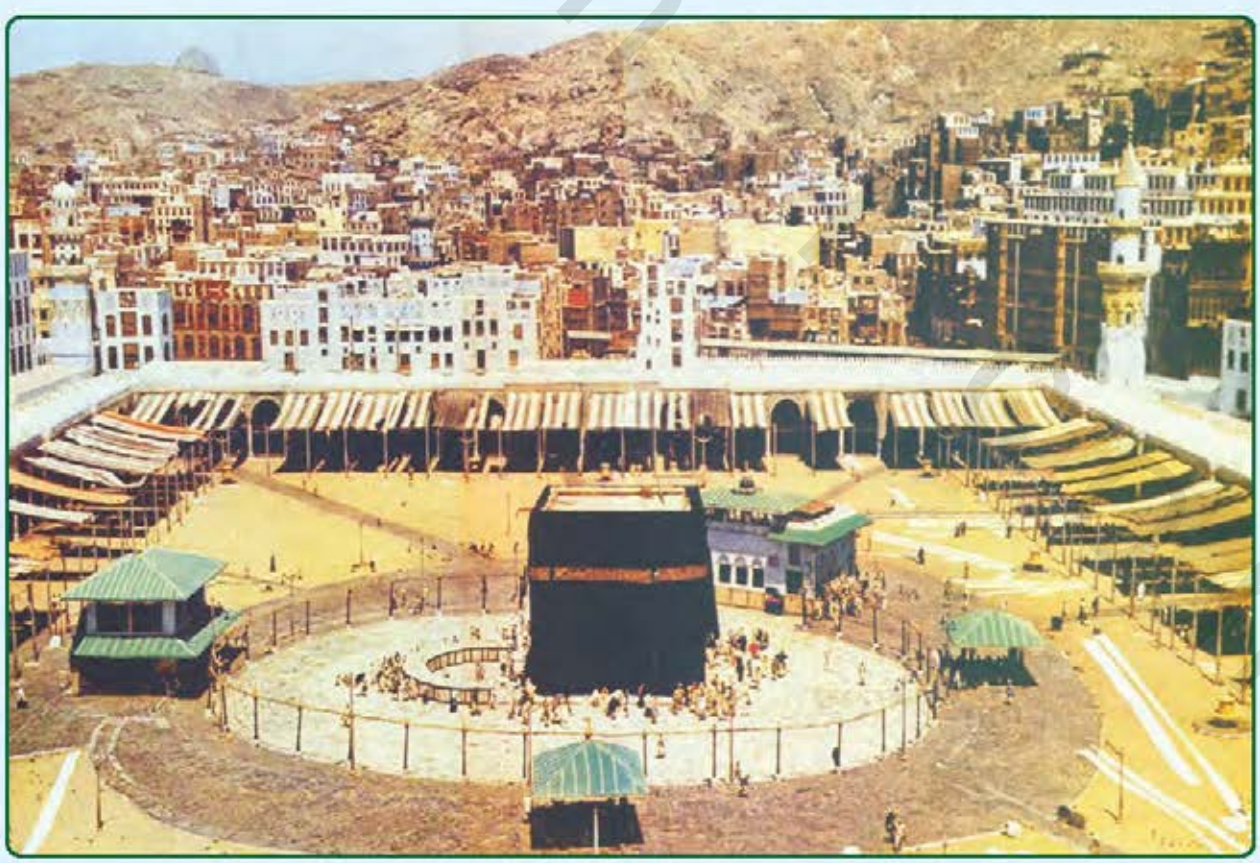

طُرُقُ الحَجِّ القَدِيمَة

قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الحج الآيات ٢٧ - ٢٩.

لقد تضمنت هذه الآيات الكريمة : مشروعية الحج (وأذّن في الناس بالحج)، والرحلة إليه (يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر)، كما تضمنت طرق الحج (يأتين من كل فج عميق)، وأخيراً تضمنت فوائده المرجوة منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات). سورة الحج

ونظراً لما للحج من فوائد مادية، وروحية (اقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وتاريخية)؛ ولما للرحلة إليه من دور في توثيق الصلة بين الشعوب الإسلامية، والعمل على الوحدة الثقافية، والفكرية، والتشريعية بين المسلمين، وذلك من خلال اللقاءات، والحوارات، والأخذ والعطاء، في الطريق إلى الحج، أو العودة منه، وفي رحاب الأراضي المقدسة، مكة والمدينة، وما يلحق بهما، وتأكيداً على الأداء التاريخي الذي أدته طرق الحج، حيث تُعد في التاريخ الإسلامي من أهم مصادر الثقافة الجغرافية؛ لأنها تدعو إلى دراسة الطرق والوسائل المؤدية إليه، والتعرف على خصائص البلاد، والشعوب التي يمر بها الحاج، منذ أن يغادر بلده، حتى يبلغ الحرمين الشريفين.

لذلك شهدت الجزيرة العربية في العصر الإسلامي ظهور وتطور لسبعة طرق رئيسة للحج والتجارة، هي: طريق الحج الكوفي، وطريق الحج البصري، وطريق الحج الشامي، وطريق الحج المصري، وطريق الحج اليمني الساحلي، وطريق الحج اليمني الداخلي، وطريق الحج العُماني.

وتتصل هذه الطرق مع بعضها البعض في نقاط رئيسة، أو بواسطة طرق فرعية، ولقيت طرق الحج عناية فائقة من قبل الخلفاء المسلمين، والأمراء، والوزراء، والأعيان، ومن محبي الخير من التجار والوجهاء على مر العصور، وبعض الطرق استمر استخدامه حتى عهد قريب، والبعض الآخر اندثر بسبب الظروف المناخية، والاقتصادية، والهجرات السكانية.

وأقيمت على طرق الحج منشآت عديدة، مثل: المحطات والمنازل والمرافق الأساسية من برك، وآبار، وعيون، وسدود، وخانات، ومساجد، وأسواق، كما أقيمت على هذه الطرق الأعلام، والمنارات، والأميال، التي توضح مسار تلك الطرق وتفرعاتها.

١ - سورة الحج ٢٧ - ٢٨.

دَرْبُ زُبَيْدَة

يعد طريق الحج من الكوفة، إلى مكة المكرمة من أهم طرق التجارة والحج في العصر الإسلامي، وقد عرف هذا الطريق فيما بعد باسم (درب زبيدة)؛ نسبة إلى السيدة زبيدة بنت جعفر، زوجة الخليفة هارون الرشيد «توفي رحمه الله سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م»، والسيدة زبيدة كان لها أعمال كثيرة في إقامة بعض المنشآت على هذا الطريق، وفي مكة المكرمة، ومن أهم أعمالها، حفرها عين زبيدة التي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

وطريق (الكوفة - مكة) لا يستبعد أن يكون ممروفاً قبل العصر الإسلامي؛ حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة ١٤هـ، وربما كانت القوافل التجارية من مكة، والمدينة تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق، وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام توقف في بعضها الجيش الاسلامي بقيادة سعد ابن أبي وقاص قبل دخوله العراق، ومن هذه المناهل: زرود، والثعلبية، وشرف، والعذيب، والقادسية.

غير أن الطريق انتظم استخدامه بعد فتح العراق، وانتشار الإسلام في المشرق الإسلامي، فتحولت مناهل المياه، وأماكن الرعي، والتعدين على الطريق إلى محطات رئيسة، وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة الراشدة، وحتى العصر الأموي؛ وبانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق، في العصر العباسي، أصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين، وبقية أنحاء الجزيرة العربية وحتى اليمن، وأعطى خلفاء بني العباس جل اهتمامهم بتأمين طرق المواصلات، وبالأخص طريق الكوفة من مكة، كما كان للأمراء، والوزراء، والقادة، والوجهاء، إصلاحات أخرى كثيرة على الطريق.

د. سعد بن عبد العزيز الراشد، طرق الحج الرئيسة، النسخة الرقمية.

دَرْبُ زُبَيْـــــدَةَ

درب زبيدة، ينسب إلى زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، ولدت في عام ١٥٨هـ، وتوفيت عام ٢١٦هـ وهي إحدى زوجات الخليفة العباسي هارون الرشيد - رضي الله عنه - أبرز الخلفاء العباسيين ١٧٠-١٩٣هـ، قامت زبيدة بالإشراف على إنشاء طريق الحج، ويمثل هذا الدرب في خدمة حجاج بيت الله الحرام من بغداد (عاصمة الخلافة العباسية)، ومروراً بالكوفة إلى مكة المكرمة، حيث تم وضع علامات على الطريق؛ لإرشاد الحجاج، وتم وضع برك لجمع الماء بطريقة ذكية، حيث تم وضع كل بركة أسفل وادي صغير لجمع ماء المطر ويستفيد منها الحجاج للتزود بالماء، ومع مرور السنين استفاد حجاج بيت الله الحرام من هذا الطريق.

ويبلغ طول هذا الدرب ١٤٠٠كم تقريباً، وينتهي هذا الدرب في عين زبيدة التي تبع من وادي نعمان، ثم تمر في مرحلات فتقطع وادي مُرّنة، ثم الهدر إلى مكة، وكانت محمية بطريقة السيارة هندسية متطورة.

مسلك درب زبيدة وهو قادم من العراق ثم دخوله في الأراضي السعودية

بركة المياه في موقع الريذة

عين زبيدة

بغداد
العـــــراق
كربلاء
نهر الفرات
نهر دجلة
الكوفة
النجف
خان الرحبة
بركة أم قرون
بركة المغيثة
بركة حمد
بركة المسيجد
بركة الطلحات
بركة السميمة
واقصة
بركة عثامين
العقبة
بركة الظفيري
بركة العميماء
الهيثم (القاع)
الجميمة
زبالة
بركة العصافير
بركة الحمراء
الشيحيات
بركة حمد
بركة المشّار
بركة المرائش
الخضراء
البدع (الثعلبية)
الهاشمة
الوسيط
زرود
حائـــــل
الأجفر
بركة الخويض
بركة الساقية
بركة فيد
القرنتين
المخروقة
سميرة
بركة حريد
حرة خيبر
الحاجز
بركة الحميمة (الجميمة)
النقـرة
جبل ماوان
المدينة النبوية
الصفراء
بركة أبي سليم (الريذة)
بئر العمق
السويرقية
مهد الذهب (بنو سليم)
ضليع الشق
صفينة
أغاعية
خبراء الحاج
المسلح
بركة الغزلانية
بركة الخرابة
البركة
الزيمة
عشيرة
جدة
مكة المكرمة
الطائف
البحر الأحمر (بحر القلزم)
البصرة
بلاد فارس
الخليج
كاظمة
خليج البحرين (الخليج العربي)
حفر أبي موسى
صحراء الصمان
الخط
صحراء الدهناء
جبل طويق
شقراء
القصيم

خريطة درب زبيدة

لقطات متنوعة لبركة زبيدة بفيد والتي تقع على بعد ١٢٠ كم جنوبي حائل

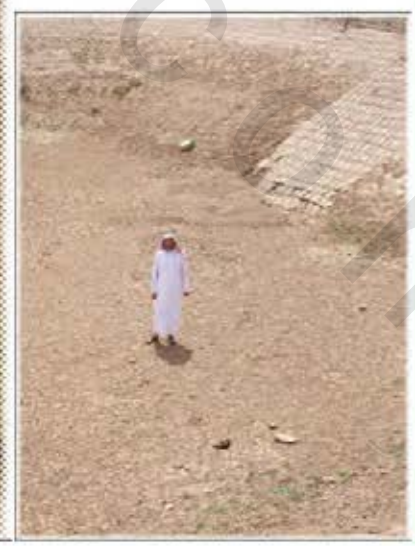

فَيْدُ، بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: قال ابن الأعرابي: الفَيْدُ الموت، والفيد: الشمرات فوق جَحْفَلة الفرس، وقيل للمؤزّج: لم اكتنيْتَ بأبي فَيْد؟ قال: فيد منزل بطريق مكة، والفيد: وَرْدُ الزعفران، ويجوز أن يكون من قولهم: استفاد الرّجلُ فائدَةً، وقلّ ما يقولون فادَ فائدة؛ قاله الزجاجي. وفَيْدٌ: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن **يُودعُ الحاجّ فيها أزوادَهم وما يثقل من أمتعتهم** عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئاً من ذلك، **وهم مغوثة للحاجّ** في مثل ذلك الموضع المنقطع، ومعيشة أهلها من ادّخار الكوفة طول العام إلى أن يقدم الحاجّ فيبيعونه عليهم، قال الزجاجي: سميت فيد بفَيْد بن حام وهو أول من نزلها، وقال السكوني: **فيد نصف طريق الحاجّ من الكوفة إلى مكة**، وهي أثلاثٌ: ثُلثٌ للعُمَريّين وثلث لآل أبي سلامة من همدان، وثلث لبني تيهان من طيّء، وبين فَيد ووادي القرى ستّ ليال على العُرَيمة، وليس من دون فيد طريق إلى الشام، بتلك المواضع رملٌ لا تسلك حتى تنتهي إلى رَبالة أو العقبة على الحزن فربما وُجد به ماء وربما لم يوجد فيجنب سلوكه؛ قالوا: وقول زُهير فَيْدُ القُرَيّات موضع آخر، والله أعلم، وقال الحازمي: **فيد**، بالياء، **أكرمُ نجد قريب من أجإ وسَلْمى جبلَيْ طيّء**؛ ينسب إليه محمد بن يحيى ابن ضُرَيس الفَيدي؛ ومحمد بن جعفر بن أبي مُوَاتية الفيدي؛ وأبو إسحاق عيسى بن إبراهيم الفيدي الكوفي، سكن فيد، يروي عن موسى الجهني، روى عنه أبو عبد الله عامر بن زُرارة الكوفي وغيرهم. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

لكثرة في « فيد » التنانير الخاصة بالطهي خارج قصر خراش، ولا سيما أنها في منتصف طريق الحج الكوفي إلى مكة، وكما ذكر ياقوت أنهم مغوثة الحاج في هذا الموضع المنقطع، ولا غرو في ذلك؛ فهم أحفاد حاتم الطائي؛ لذلك لفت انتباهي أثناء جولتي للتعرف على موضع البرك التي أنشأتها السيدة زبيدة، « زوجة هارون الرشيد » على طريق الحج كثرة وجود هذه التنانير في هذا الموضع بالتحديد، وهذا تأكيدٌ على قول الحازمي بأن: فيد، بالياء، أكرمُ نجد، قريب من أجإ وسَلْمى جبلَيْ طيّء .

خريطة طريق الحاج البصري

البصرة
المنجشانية
الحفير
الرحيل
الشجي
الخرجاء
الطرابين
حفر أبي موسى
(حفر الباطن)
ماوية
ذات العُشَر
ينسوعة
السُّمَينة
النباج (عين ابن فهيد)
الموسجة
زامة
إمَّرَة
ملخفة
ضريّة
جديلة
فلجة
الدخينة
مرّان
الشبيكة
وجرة
أوطاس
ذات عرق (ميقات)
مكة المكرمة

إلى الدهناء الشرقية

صورة تاريخية للشرعات شط العرب، والذي تطل عليه مدينة البصرة العراقية

روضة أم عُشَر

أحد الأسوار الأثرية في النَّباج (عين ابن فهيد)

الطريق من البصرة إلى مكة

قال ابن خرداذبه: من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحُفَير، ثم إلى الرُّحَيْل، ثم إلى الشُّجي، ثم إلى الخَرجاء، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماويّة، ثم إلى ذات العُشَر، ثم إلى اليَنسوعة، ثم إلى السُّمَيْنة، ثم إلى النَّباج، ثم إلى الموسجة، ثم إلى القريتين، ثم إلى رامة، قال يزيد بن مُفَرِّغ الحميري:

أسرعتَ حيلكَ من أُمامَةَ ... من بعد أيامٍ برامة

ثم إلى إمَّرَة، ثم إلى مِلخَفة، قال جرير:

وقد جعلتْ يوماً بملخفة خيلُنا ... لآلِ أبي قابوسَ يوماً مُنَكَّراً

ثم إلى ضَرِيَّة، ثم إلى جديلة، ثم إلى فَلْجة، ثم إلى الدَّهْنة، ثم إلى قُبَّا، ثم إلى مَرّان، ثم إلى وَجْرَة، ثم إلى أوطاس، ثم إلى ذات عِرق، ثم إلى بستان بني عامر، ثم إلى مكة، فمن عدل من النَّبّاج فإلى النُّقْرة.

ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٧٧ .

خريطة حديثة للمناطق الإدارية في المملكة أوضحنا من خلالها مسار طريق الحاج البصري

حَفَرٌ: بفتحتين؛ وهو في اللغة التراب الذي يستخرج من الحُفرة، وهو مثل الهَدَم، وقيل: الحَفَرُ المكان الذي حُفر كخندق أو بئر، وينشد: قالوا انتهينا وهذا الخندق الحفر.

والبئر إذا وُسِّعت فوق قدرها سُمِّيت حفيراً وحَفَراً وحفيرة. **حفرُ أبي موسى الأشعري**، قال أبو منصور: الأحفار المعروفة في بلاد العرب ثلاثة: حفرُ أبي موسى، وهي ركايا أحفرَها أبو موسى الأشعري على جادّة البصرة إلى مكة، وقد نزلت بها واستقيت من ركاياها، وهي بين ماوِيَّة، والمَنْجَشانيّة، بعيدة الأرشية، يستقى منها بالسانية، وماؤها عذب، وركايا الحفر مستوية، ثم ذكر حفر سعد، وقال أبو عبيد السكوني: حفرُ أبي موسى مياه عذبة على طريق البصرة من النَّباج (**محافظة الأسياح بمنطقة القصيم اليوم ، انظر الصورة في الأسفل**) بعد الرَّقمتَين وبعده الشَّجي لمن يقصد البصرة، وبين الحفر والشجي عشرة فراسخ، ولما أراد أبو موسى الأشعري حفرَ ركايا الحَفَر، قال: دُلُّوني على موضع بئر يُقطع بها هذه الفلاة، قالوا: هَوْبَجة تنبت الأرطى بين فَلْج وقُلَيج، فحفَرَ الحَفَرَ، وهو حَفَرُ أبي موسى، بينه وبين البصرة خمس ليال، قال النَّضر: والهَوْبَجة أن تحفر في مناقع الماء ثماداً يسيلون الماء إليها فتمتلىء فيشربون منها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٥ .

الأسياح « النَّباج »: زاد من شهرتها أنها كانت محطة هامة من محطات طريق الحاج البصري إلى مكة المكرمة، والمدينة النبوية؛ ومنها يفترق الطريقان الرئيسان إلى مكة، والمدينة، حيث كانت « النَّباج » ماء ترده القوافل، حتى ابتدأ عمارته عبد الله بن عامر بن كريز، الذي أعاد استنباط عيونها الجارية، وغرس نخيلها، ثم اندثرت حتى ازدهرت مرة أخرى في عهد سلطان مارد، وبعد مقتل سلطان مارد اندثرت مرة ثالثة، حتى أعاد إحياءها « محمد الفهيد، من قبيلة عتيبة » في بداية القرن الثالث عشر الهجري، وتحديداً في العام ١٣٠١هـ : لذلك تسمى عين ابن فهيد، وهذه الصورة تمثل سد الأسياح، « النَّباج » التقطتها عام ١٤٢٥ هـ، والذي كان الحاج البصري يتوقف عندها؛ للتزود بالمياه، وبعض الحوائج.

سد الأسياح « النَّباج » أثناء هطول المطر

إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء، به القِبْلَة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم وقبره وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة إسحاق وأمه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصته وجب أرميا وحبسه ومسجد أوريا وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعراك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى، وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد صديثا، وقبرموسى ومضجع إبراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط وموضع الجنان، ومساجد عمر ووقف عثمان، والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان، وباب حِطَّة ذو القدر والشأن، وباب الصور وموضع البعثين وقبر مريم وراحيل ومجمع البحرين، ومفرق الدارين، وباب السكينة وقبة السلسلة ... المقدسي المُقَدِّسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

خريطة طريق الحاج الشامي

الديار الشامية
الكرك
بادية الشام
معان
عقبة الفرات
ذات الحاج
بلدح
تبوك
الأخيضر
المعظم
الدار الحمراء
الحجر
العُلا
قلعة زمرد
هدية
قلعة عنتر (جداعة)
قلعة الحفيرة
المدينة النبوية
ذو الحليفة
الصفراء
بدر
رابغ
الجحفة
السويق
خليص
عُسفان
مر الظهران
مكة المكرمة
العراق
النجف
الكوفة
نهر الفرات
النفود
زبالة
صحراء
زرود
جب الجزيرة العربية
نجد
فيد
سميرة
النقرة
الحجاز
أرض
حرة خيبر
بحر القلزم (الأحمر)
يوم عرفة (الخميس) سنة ٧٢٦ هـ
٥٠ ١٠٠ كم

نموذج لسير رحلة (ابن بطوطة) من الشام إلى الحجاز

وأقام الركب بخارج **الكرك** أربعة أيام بموضع يقال له الثنية، وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى **معان**، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود. وبعد مسيرة يومين نزلنا **ذات حج**. وهي حسبان لا عمارة بها. ثم إلى وادي **بلدح** ولا ماء به، ثم إلى **تبوك** وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ... ثم يرحل الركب من تبوك، ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية. وفي وسطها **الوادي الأخيضر**... ومن هنالك ينزلون **بركة المعظم**. وهي صخيمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب. ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين، وربما جف في بعضها. وفي الخامس من أيام رحلهم عن تبوك يصلون البئر الحجر **حجر ثمود**. وهي كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك. فأسرع براحلته وأمر أن لا يستقى منها أحد. ومن عجن به أطعمه الجمال. وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة. لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة. وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت. إن في ذلك لعبرة. ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك. وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه. **وبين الحجر والعلا** نصف يوم أو دونه. **والعلا** قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أسحاب أمانة، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام، لا يتعدونها، ويبايعون الحجاج الزاد وسواه. ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعقاص، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة. هبت السنين على الركب فعل يخلص منها إلا اليسير. وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالقي. ومنه ينزلون هدية، وهي حسبان ماء يتواد يحفرون به، فيخرج الماء وهو زعاق. وفي اليوم الثالث ينزلون البلد المقدس الكريم الشريف، طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، ... أ. هـ.

تظهر بالصورة إحدى البرك الممتلئة بالمياه، والتي كان يتزود منها الحُجّاج قديماً على درب الحاج الشامي، بجانب إحدى القلاع التاريخية بتبوك، حيث قدر - موقع مشكات - أثناء التقاطهم للصورة مساحة هذه البركة بنحو ٢٤٠م ٢ تقريباً، وعلى عمق ٥ م .

طريق(عُمان - مكة المكرمة):

هناك طريقان داخليان من عُمان إلى مكة، أحدهما: يأخذ من عُمان إلى يبرين، ثم إلى اليمامة، ثم إلى ضريَّة. وتذكر المصادر الجغرافية، أن ضريَّة كانت ملتقى حجاج البصرة، والبحرين، وهناك يفترقون إذا انصرفوا من الحج، فيأخذ حجاج البصرة ذات الشمال، وحجاج البحرين ذات اليمين، وهناك طريق آخر من عُمان يتجه إلى فرق، ثم عوكلان، ثم إلى ساحل هباة، وبعدها إلى الشحر. وبإمكان حجاج عُمان أخذ أحد الطريقين من اليمن، فإما عن طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الأحمر الذي يمر بعدد من المخاليف، والمنازل، مثل: مخلاف عك، والحردة، ومخلاف حكم، وعثر، ومرسى، وضنكان، والسرِّين، حتى الشعيبة، ثم جدة، فمكة. أو بإمكان حجاج عُمان أخذ الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مروراً بعدد من المنازل، بعضها لا يزال معروفاً حتى اليوم، مثل: رنية، وتربة، حتى يصل إلى مكة. - معظمها ضمن النطاق الجغرافي للمملكة العربية السعودية - .

مسارات قوافل حجاج آسيا نحو الديار المقدسة في العصور القديمة وقبل بدايات اختراع وسائل النقل الحديثة .

طريق الحرير الرابط بين شرقي قارة آسيا وقارة أوروبا في العصور القديمة، وتمثل النقاط الحمراء محطات للقوافل .

استراحة على طريق قوافل الحجاج في طشقند (الأوزبكية)

طريق الحج اليمني القديم

يبدأ هذا الطريق من صنعاء مروراً بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير، والحجاز ماراً بالقرب من موقع جُرش، ثم يتجمع إلى بيشة، وتَبَالَةَ، وتُربة، حتى يصل قرن المنازل، فمكة المكرمة.

وقد بلغت المحطات على هذا الطريق فيما بين صنعاء ومكة ٢٥ محطة رئيسة، وكشفت الاستطلاعات، والدراسات الأثرية، عن جوانب مهمة تتمثل في الأعمال الهندسية، من رصف للطريق في المناطق الوعرة، والمنشآت المائية، والكتابات الإسلامية الصخرية المبكرة، وأحجار المسافة، ومن المناطق التي يمكن فيها مشاهدة آثار هذا الطريق منطقة الراكبة، والمصلولة، وكريف العلب.

م	الحربي ٢٨٥هـ	ابن خرداذبة ٣٠٠هـ	قدامة ٣١٠-٣٢٠هـ	قدامة	الهمداني (٣٣٤هـ)	المقدسي (٣٩٠هـ)	الأدريسي ٥٤٨هـ	الأدريسي
١	بنات حرب	+	بنات حرم	بنات حرم	+	بنات حرم	قرية بني زياد	بنات
٢	السو...ساله	–	–	–	–	–		–
٣	حمداء	+	+	+	الحمياء	+	قرية حمداء	قرية حمداء
٤	البتاء	–	–	–	–	–	–	–
٥	بيشة	بيشة بعطان	+	+	بيشة بعطان	+	مدينة بيشة بعطان	بيشة بقطان
٦	تبالة	+	+	+	+	+	مدينة تبالة	مدينة تبالة
٧	أحرب	–	–	–	–	–	–	–
٨	–	رنية	+	+	–	+	الروية	قرية رنية
٩	خلاجة	–	–	–	–	–	–	–
١٠	–	–	الزعراء	–	–	–	–	–

أسماء بعض المحطات والمنازل الواقعة على مسار درب الحج اليمني الأعلى « النجدي » عند مروره في أراضي « بيشة » وفقاً لكتابات أبرز الجغرافيين المسلمين الأوائل . الجدول من تصميم د . محمد بن عبد الرحمن الثنيان .

هذه العلامة « + » تعني ورود اسم الموقع عند الحربي (صاحب المناسك) أو غيره، وهذه العلامة « – » تعني عدم ورود اسم الموقع عند السابقين.

أجرى الباحث، د. محمد بن عبد الرحمن راشد الثنيان من جامعة الملك سعود، كشفاً أثرياً للطريق القديم الذي يصل صنعاء بمكة، وبيَّن الكشف أن الطريق الذي استخدم في الأزمنة القديمة للتجارة، هو الطريق ذاته الذي استخدمه الحُجَّاج اليمنيون بعد الإسلام للوصول إلى مكة، وأوضح الثنيان في كتابه الذي أصدرته وكالة الآثار السعودية في سنة ١٤٢٠ هـ، أن درب الحُجَّاج يخترق أراضي مستوية في الجانب اليمني، بينما يمر ببعض التضاريس الوعرة في الجانب السعودي عند جبال السروات، وحرَّة البقوم.

الطريق في اليمن

قبس نبوي :

عن خبَّاب بن الأَرَتِّ قال: «شكونا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهوَ متوسِّدٌ بُردةً له في ظلِّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل فيُحفرُ له في الأرض فيجعَل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضَعُ على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد من دُونَ لحمه، وعظمه، فما يَصدُّه ذلك عن دينه. والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا الله والذِّئبَ على غَنَمه، ولكنكم تَستعجلون». صحيح البخاري

حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا عبد الوهاب، قال: أنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما بَيْنَ نَاحِيَتَيْ حَوْضِي، كما بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالمدِينَةِ، أَوْ مِثْلُ ما بَيْنَ المَدِينَةِ وَعُمَانَ » . مسند الإمام أحمد

خريطة حديثة للمناطق الإدارية بالمملكة أوضحنا من خلالها مسار طريق الحاج اليمني في الديار السعودية

طُرُقُ الحَجِّ الإفْرِيقِيَّة

كانت "الفسطاط" هي مركز التجميع في طريق الحج المصري، وكان ميناء عيذاب هو بداية الرحلة البحرية إلى بيت الله الحرام، وهو أهم الموانىء المصرية على البحر الأحمر، وكانت ترد إليه مراكب الهند، واليمن، وتغادره بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة، والواردة. وقد ظل هذا الميناء طريق الحج الوحيد إلى مكة لفترة زمنية طويلة، يقول المقريزي في خططه: "إن حجاج **مصر والمغرب** أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب"، وكان الحجاج - كما وصف ابن جبير- يقلعون في النيل من الفسطاط إلى "قوص" مارين بالعديد من المدن، والقرى على ضفتي النيل- التي كانت تمتاز بكثرة أسواقها، ومرافقها، وكانت ملتقى الحجاج، والتجار من مختلف الأنحاء. وهي رحلة كانت تستغرق ثمانية عشر يوماً في النيل، وكان الحجاج يستريحون بعض الشيء في "قوص". وهي مدينة تعد حاضرة ثقافية في مصر الإسلامية"؛ انتظاراً لانتقالهم إلى ميناء عيذاب" على البحر الأحمر بعد أن يتزودوا بما يحتاجون إليه، ويتجمعون في "المبرز". قبلي قوص. وهناك يتم وزن أمتعتهم، وأثقالهم؛ لتقدَّر الأجرة عليها حيث تحمل أصحابها على ظهور الإبل، ويمكن استخدام غيرها من وسائل النقل عبر الفيافي المقفرة . التي تقل فيها المياه، وكان أصحاب الجاه، والثراء يركبون "الشقادف". وهي أشباه المحامل. وأحسن أنواعها اليمانية وهي مجلدة متسعة، يوصل الاثنان منها بالحبال الوثيقة، وتوضع على الإبل، ولها ذراع قد حفت بأركانها، ويكون عليها مظلة، فيكون الراكب مع عديله في وقاية من لفح الشمس المحرقة، خصوصاً وقت الهاجرة، ويجلس في مكان أو يتكيء، دون أن يشعر بالتعب، ويتناول أحياناً مع عديله الطعام، أو يقرأ في مصحف، أو كتاب، أو يلعب الشطرنج مع عديله إذا أحيا اللعب؛ للترويح من عناء السفر. أما أغلب المسافرين فكانوا يركبون فوق الأحمال، ويقاسون من ذلك كثيراً؛ لشدة الحر الذي يشبه السموم [1].

وبعد الانتهاء من الإجراءات يقلع الحجيج من "المبرز" إلى "عيذاب" عبر الصحاري القفرة في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً، إذ تقطع الرحلة من "الفسطاط" إلى "عيذاب" في حوالي ستة وخمسين يوماً، تستدل ذلك من رحلة "ابن جبير" إذ سار من "الفسطاط" في السادس من المحرم سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م فوصل "عيذاب" في الثاني من شهر ربيع الأول من نفس العام. وعيذاب صحراء لا نبات فيها، وكل ما فيها مجلوب حتى الماء.

وبعد وصول الحجاج إلى عيذاب ،كانوا ينتظرون أياماً صعبة؛ لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الإنسان، وإضافة إلى سوء أحوال الطقس، والطبيعة القاسية في هذا المرفأ، فهو كما وصفه ابن جبير "كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام.... فهي ماء زعاق، وجوكله لهب، فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق،... وما أعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه لا سيما في تلك البلدة ! ....، وقد وصفت هذه المدينة في الخيال الشعبي بأن النبي سليمان بن داود عليه السلام جعلها "سجناً للعفاريت".

بعد تلك المعاناة التي كان يلقاها الحجاج في عيذاب يركبون الجلاب إلى جدة، والجلاب هو نوع من المراكب التي كانت تسير في المحيط الهندي ، والبحر الأحمر، ومفردها جلبة، وهي عبارة: عن قارب كبير، أو قنجة مصنوع من ألواح موصولة بأمراس أليف النارجيل، وقد استعملها أهل مصر، والحجاز، واليمن في نقل الحجاج والأزواد [2].

١، ٢ - د. محمد كمال الدين إمام، طرق الحج وقوافله في التاريخ الثقافي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو. ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

خارطة إفريقيا السياسية ليتعرف عليها القارئ من خلال تحديد مواقع الدول في القارة الإفريقية

خريطة طريق الحاج الافريقي

ذكر المؤرخ المصري تقي الدين المقريزي في كتابه الخطط: أن هذا الطريق (الطريق البحري إلى مكة) ظلّ مسلكاً للحجاج من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة ٦٦٠هـ، ومع انتهاء الوجود الصليبي في مصر والشام عاد الحجاج إلى استخدام طريق سيناء والبحر الأحمر مرةً ثانيةً لنشاطه.

تبدأ قوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي بالانطلاق من مدن المغرب، كمراكش، وفاس، وسلا. وأحياناً كانت تضم حجاج السنغال، ويمد تجمُّع الحجاج تنطلق قافلتهم سالكةً إما الطريق البرّي المحاذي البحر المتوسط، أو الطريق البحري عبر البحر المتوسط.

واعتادت هذه القافلة أن تكون على موعد مع غيرها من قوافل الحج للحجاج الجزائريين، والتونسيين، والليبيين؛ وذلك لمرور طريق الحج بمدن المهدية، وسفاقس، وسوسة، وطرابلس، وبرقة، وطبرق، ثم تمر هذه القوافل مجتمعةً الأراضيَ المصرية بمحاذاة الساحل حتى تصل إلى ميناء الإسكندرية، ثم رشيد، وبعدها تركب قوافل الحجاج المراكب النيلية عبر فرع رشيد، إلى أن تصل جميعها إلى القاهرة، وتلتقي مع قافلة الحج المصرية حتى تأنس بها ذهاباً وإياباً عند مكان شمالي القاهرة كان يُعرَف آنذاك ببركة الحاج، وموقعه حالياً القرية المعروفة باسم البركة، إحدى قُرى مركز شبين القناطر محافظة القليوبية.

ثم تُواصل جميع القوافل مسيرتها برّاً حتى تصل إلى ميناء القلزم (السويس حالياً)، ومنها إما مواصلة الطريق البري عبر سيناء، ثم محاذاة البحر الأحمر برّاً إلى مدينة جدة، أو تبحر القوافل في السفن عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة، ومنها برّاً إلى المدينة، ثم إلى مكة المكرمة. شرفها الله تعالى..

جاء تأسيس مدينة تمبكتو في القرن الخامس الهجري (في القرن الحادي عشر الميلادي) على يد جماعة من الطوارق كانت تُعرف بـ"طوارق مقشرن". وهم مجموعة كانت تعيش في هذه المنطقة بين مدينة يقال لها أروان في إقليم السودان الغربي، على بُعد حوالي ٤٥٠ كيلو متراً من موقع تمبكتو، فتأسست تلك الجوهرة الإسلامية لكي تكون محطةً للمتنقلين في الصحراء، حيث ساعدت الطوارق على التنقُّل بين منطقتهم وأروان التي كانوا يرحلون إليها في الخريف. فكانت بالفعل علامة الصحراء.

بدأت تمبكتو بلفت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي بعد رجوع ملك المندينغ "منسا موسى" من رحلة الحج الشهيرة التي قام بها عام ١٣٢٥ م، ومرَّ في طريقه إليها آلافاً مؤلفة من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة؛ مما تسبب في هبوط أسعار الذهب. وقد أمر السلطان الشاعر الفرنساطي المُلقب بالسهيلي بتصميم جامع كبير، والإشراف عليه (هو جامع تمبكتو القائم إلى يومنا هذا). وكانت تلك النواة الأولى لبناء صرح علمي في تمبكتو، حيث سار مع مرور الأيام مركزاً للعلم، خاصة لبرع امرأة من سركولو (إحدى القبائل المالية) ببناء جامع آخر فيما بعد، وقد ازدهر العلم مع القوافل الطلبة من شمال وغربي إفريقيا على تمبكتو، وقد ساعد على ذلك الإتفاق السطي الذي قام به التجار على دور العلم فكان أربع تزاوج بين المال، والمعرفة في عروس الصحراء، إذ وصل عدد المدارس في ذلك الوقت ١٨٠ مدرسة، تضم أكثر من ٢٥,٠٠٠ طالب، كما وصل مستوى التعليم فيها إلى نفس المستوى الذي وصل إليه في قرطبة، وبغداد، والقاهرة.

مخطوطة قديمة من تمبكتو

خريطة حديثة للمناطق الإدارية بالمملكة أوضحنا من خلالها مسار طريق الحاج المصري والشمال الإفريقي

مسلك حجاج مصر وشمال إفريقيا لمن أراد الحج قبل زيارة المسجد النبوي.

مسلك حجاج مصر وشمال إفريقيا لمن أراد زيارة المسجد النبوي قبل أداء فريضة الحج.

طرق فرعية مشهورة.

جزيرة العرب

قسم د.علي إبراهيم الغبان، المراحل التي مر بها درب الحج المصري إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: وتمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، وكان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية؛أحدهما داخلي، والآخر ساحلي (وهو الذي ذكره ابن حوقل).

المرحلة الثانية: مرحلة طريق عيذاب، وتمتد من عام نيف وأربعين وأربعمائة إلى سنة ٦٦٦هـ، وخلال هذه الفترة توقف استخدام الطريق البري في شمالي الحجاز، وكان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوص، ثم يسافرون بالقوافل إلى عيذاب، ثم يعبرون البحر إلى جدة.

المرحلة الثالثة: وتمتد من سنة ٦٦٧هـ إلى سنة ١٣٠١ هـ، وخلالها عاد الحجاج إلى استخدام الطريق البري الساحلي.

المرحلة الرابعة: من سنة ١٣٠١ هـ إلى يومنا هذا. المرجع، الآثار الإسلامية في شمال غربي المملكة، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص٢٠٩.

تمثل الصورة، الاحتفال السنوي المُسَمَّى بالمحمل؛ وذلك بمناسبة إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة المكرمة .. هذا الاحتفال كان يبدأ مع قرب موسم الحج .. وكانت مصر هي ملتقى حجاج المغرب، والأندلس، وجميع دول شمال إفريقيا .. حيث يتجمعون هناك في عدة مناطق بالقاهرة .. مثل: جامع أحمد بن طولون، وعند بركة الحج (وهي الآن منطقة حدائق القُبَّة) ويأتي أمير الحج الذي سيكون مسئولاً عن بعثة الحجاج المصريين .. وتتجمع الشرطة في حضور عدد كبير من المواطنين، وهم يودعون كسوة الكعبة إلى الأراضي المقدسة.

الاحتفال المصري بكسوة الكعبة قديماً

مدينة حقل السعودية

يتواصل الطريق الساحلي من إيلة ، ثم حقل في الأراضي السعودية، ثم مدين، ثم بعد ذلك إلى عينونة، ماراً بطريق شرمة، وتريم، والنبك (المويلح)، ووادي الغال (وادي القسطل)، وضباء، والأزلم، وبركة عنتر، والوجه، وبين النهدي. ووادي المرجا، وبركة أكرى، وبئر القروي، والحوراء، وينبع البحر ، إلى المدينة النبوية ، ويُسَمَّى الطريق المنطلق من الحوار إلى ينبع الفرع الساحلي، ويمر ببئر قتير، ويواصل سيره نحو الجنوب، ويمر بوادي خماس، ثم جبل البوانة، ثم يمر بوادي نبط قرب مصبه في البحر الأحمر، ويمر بجبل جريول شمال شرم الخور، ويتجه شرقاً ماراً بوادي كمال، وفي شمال شرم ينبع يميل نحو الجنوب الشرقي ليصل ينبع البحر سيراً على السهل الساحلي ، مع العلم أن الجار. ميناء بحري. كانت أيضاً طريقاً للحاج المصري في الفترات المبكرة حتى كان العهد الأيوبي الذي ظهر في عهده ميناء ينبع بشكل بارز. ويتجه الطريق إلى جنوب شرقي ينبع البحر، حتى يصل إلى آبار المسيحلي، ثم إلى آبار سعيد عبر وادي الصفراء، حتى بئر عباس بوادي الصفراء، ثم المسيجيد، فيخرج من وادي الصفراء باتجاه الشرق إلى بئر الروحاء، إلى الشمال الشرقي حتى يصل المدينة النبوية. ومن بدر إلى رابغ، فخليص، فسفان، ومنها إلى وادي فاطمة (مر الظهران). "الجموم" ومنها إلى سرف، إلى التنعيم، ومنه إلى وادي الزاهر، وذي طوى، ويسير الحاج إلى وادي الأبطح، حيث يتفرق الحجاج بنواحي مكة. شرفها الله تعالى..

الجامع الكبير في أبوجا عاصمة نيجيريا

بناء طيني لأحد جوامع باماكو عاصمة مالي

أبرز مسالك الحاج الإفريقي من الغرب الأوسط ووسط إفريقيا إلى الديار المقدسة

إفريقيا

أطلق المؤرخون القدامى على الممالك التي نشأت في القرن الإفريقي اسم ممالك الطراز الإسلامي، ذكر ذلك القلقشندي في صبح الأعشى، وهي البلاد المسماة ببلاد الزيلع، إذ لم تكن الأسماء الأخرى معروفة في القرون الوسطى، قال القلقشندي: وبلاد الزيلع هي: « البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر القلزم (البحر الأحمر)، وما يتصل به بحر الهند (المحيط الهندي)»، ويعبر عنها باسم « الطراز الاسلامي؛ لأنها على جانب البحر كالطراز له » . وقال العمري: « هذه البلاد يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع... وأن طولها براً وبحراً خاصاً بها نحو شهرين، وعرضاً يمتد أكثر من ذلك ».

وقال المقريزي: أن جبرت (أوفات) « انظر الخارطة المصغرة » من البلاد، وهدية في أقصى حدودها الغربية جنوبي أديس أبابا الحالية. وهكذا حدد القلقشندي موقع بلاد الزيلع، وحدد العمري طولها وعرضها، وهو طول وعرض يتناسب مع الحدود المعروفة، وأشار المقريزي إلى أقصى حدودها الغربية وهي مملكة هدية الإسلامية التي كانت تقع غربي الأخدود الإفريقي. وكان سكان بلاد الزيلع الإسلامية يتكونون من عناصر حامية، وعربية، وأغلب هذه العناصر الحامية ما يعرف بقبائل الصومال، والجالا، والأعفار أو الدناكل.

وكان الأعفار ينزلون شمالي نهر عواش، والصومال والجالا ينزلون جنوبي هذا النهر، وفي الهضبة الشرقية لأثيوبيا الآن؛ ولذلك يمكن أن تسمى هذه الهضبة أيضاً باسم الهضبة الصومالية، في حين أن الهضبة الغربية كانت معروفة باسم الهضبة الحبشية. علي السمالي، نداء الممالك والدويلات الإسلامية في إفريقيا « ممالك وسلطنات الطراز الإسلامي في شرق إفريقيا»، النسخة الرقمية.

مسلك حجاج الشرق الإفريقي البري

مسلك حجاج الشرق الإفريقي البحري

مسلك حجاج البر والبحر إلى الحج

يتفق المؤرخون أن باب المندب كان أقدم الأبواب التي ولجتها العناصر الآسيوية في هجرتها إلى إفريقيا، وأن العرب لم يطلقوا عليه اسم الباب إلا لأنه كان مدخلهم للقارة السوداء، ولا تزال الآثار الثقافية على جانبيه تقوم شاهدة على الاتصال القديم بين آسيا وإفريقيا، وقد استمر باب المندب مدخلاً للهجرات البشرية عبر القرون المتعاقبة، وظلت الصلات بين جانبي البحر الأحمر متصلة، كما كان العرب أول من عرف كل الموانئ الواقعة في الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، وتحديداً موانئ عيذاب - سواكن - عقيق - مصوع - زيلع - بربرة - مقديشو - زنجبار - دار السلام في أعالي تنزانيا حتى موزمبيق. وكل هذه المناطق كانت جزءًا هاماً لكل الحضارة العربية الإسلامية، ومناطق الساحل هذه كانت هي المعروفة في إفريقيا، وكما هو معروف أن الإسلام في أثيوبيا له جذوره التي تمتد إلى وصول المهاجرين الأوائل إلى مملكة النجاشي المسيحية في أوائل القرن السابع الميلادي.

ويظهر الإسلام وينتشر في شبه الجزيرة، والعلاقات التجارية قائمة بينهما وبين الجانب الشرقي في إفريقيا، فلا يؤثر ظهوره في العلاقات، إلا في الذين كانوا يترددون على إفريقيا من العرب قد أصبحوا مسلمين، بعد أن كانوا من عبدة الأوثان. وهذا بالتأكيد له تأثير على من يتصلون ويتعاملون معه في الشاطئ الآخر للبحر الأحمر. محمد سعيد ناود، العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي.

دار السلام

دار السلام، عاصمة تنزانيا سابقاً، تقع على الساحل الشرقي للمحيط الهندي. وكانت سابقاً تدعى مزيزيما وتعتبر أهم مدينة بتنزانيا. وإطلالتها على المحيط الهندي جعلها أهم مرفئ بالبلاد، حيث أنها نقطة عبور هامة للحجاج قديماً، وحاضراً، وتحمل إليها البضائع، والمواد الأولية، التي تصدرها البلاد من قطن، وبن؛ على وجه الخصوص. وأغلبية سكان دار السلام من المسلمين.

موروني

موروني عاصمة جزر القُمر منذ عام ١٩٦٢م، وأكبر مدنها، تقع على جزيرة القُمر الكبرى (انغازيجا) في المحيط الهندي.